صفا.. انتباه

- انظري إلى نفسك الآن، تبدين رائعة !

تستدير لتواجه مرآةً نسيت كيف للمرء أن يواجه فيها نفسه، تبحلق عيناها في انعكاسهما، يذهلها لونٌ لم تعرفه، وبريقٌ لم تألفه! يجف حلقها، تتصاعد أناملها إليه تؤازره في محنته، وعيناها تواصلان رحلة استكشاف مجهول، لم تورده في الحسبان !

إنها هي، هي، تغافل أناملها محنة الحلق، لتسعف فمها في إخفاء شهقةٍ كادت أن تتسلل منه، تتراجع مترًا إلى الوراء، كقط متحفِّز فاجأه غريمه بدلو ماء انصهر على خلاياه دفعةً واحدة، فانتفض كلُّه يتشبث بأهداب الحياة!

تدعم قلبها بكلتا يديها وتتقدم، تنحني إلى الأمام، إلى الأمام كثيرا، أكثر، تتأمل تفاصيل نسيت أنها هناك، تزدرد لعابها وتعتدل، تتلمس بكفيها قماش الثوب تستجدي نعومته، تتقافز نقوشه أمام عينيها فتسحب آخر الأنفاس من صدرها لتزفرها متقطعة..!

- أوه يا عزيزتي، كيف طاوعك قلبك على تجاهل كل هذا فيك !!

ابتسامة تجد طريقها إلى شفتيها، لتمتد إلى عينيها على مهل، تسحب الهواء بقوة، وتغطي وجهها بكفيها تخفي تهلل أسارير غالبتها ..

تربت محدِّثتها على كتفها بحنو، فتدير لها وجهًا غارقًا في الحبور، لتعود فتواجه مرآتها، وبحركات تجيدها كل أنثى تستعرض (هي) الجديدة!

- تعالي الآن، دعينا نجلس هناك، الإطلالة رائعة، ترين!

تخطو كفهد رشيق متحفز، ثم لا تلبث أن تطلق ضحكة خافتة، فتركل مشيةً تدربت عليها طوال حياتها، ثم تسلم لفطرتها العنان تقودها نحو مقعد وثير، وتجلس بكامل الألق!

- حدِّثيني الآن، كيف تمَّ لك ذلك، كيف سجنت كل هذا فيك!!

تنهيدة وعينان ترحلان إلى البعيد: أب عسكري يشتهي الولد، نظرات اللوم تنهال عليها وهو يعلِّق سترته الخاكية على المشجب، عينان تزدريان أرديتها القصيرة، والشعر الطويل، غصاتٌ وبئر سحيقة سحيقة يبتلع فطرتها، تختبئ هناك فلا يدري عنها أحد، والكثير من البناطيل، القهقهات الطويلة العابثة،

والحركات الصبيانية الصاخبة تعاند لين أطرافها، شجارات الأقران، ورأس مشجوج والكثير من الخدوش، وصبية يتخذونها رفيقا يشكون لها غدر الأخريات، أو يصارحونها بالإعجاب بهن..!

– لا أعرف إن كنت ستفهمينني، ولكنني أحبه حقا .. تخاطبها صديقة.

= أوه دعك من هذا الهراء، لا أعرف كيف تسمحين لنفسك بهذا العبث... تجيبها محتدة

لا ترى في غيمتين متعانقتين في حضن السماء إلا اقتراب تجهيز مؤونة الشتاء، ولا في الفراشات المتراكضة تستعرض زهوها إلا الإيذان بموعد التدريب، الألوان حولها تزيد في احتدادها، تقلل من تركيزها، وتدفعها إلى الجنون، الجنون الذي يدفعها لتفوق الأقران حولها، بعد أن حجبت بكل إصرار كل مشتت يحيد بها عن هدفها الذي آمنت به، وعملت له بكل عرقٍ نابضٍ فيها!

الآن هي تسير على درب رسمته في خيالها ألف مرة، وبكامل الدقائق والتفاصيل، تلتحق بالكلية العسكرية، تملأ زوايا عقلها بالأرقام والأبعاد والاتجاهات، عيناها الواسعتان تتنكران لكل تفاصيل الحياة النابضة حولها ليتفرسا في المسافات كأنها تلمسها بيديها قبل إحكام التصويب، يتمحور كتفها ليحمل ثقلا يلازمه كأنه خلق له، وتتثاقل قدماها ليعتكفا في الحذاء الثقيل...

ليس غريبا أن يختاروها ضمن نخبة من فريق القناصة، القناص الصبور، الذي يملك كل الوقت الذي في الدنيا، ليكمن ويرى ويلاحظ ويحفز كل خلاياه لتتحول إلى أذن منصتة، وعين تراقب، وأصبع ينفذ..!

تنتفض في جلستها أمام مضيفتها، لتربت على ركبتها تهون عليها: وماذا بعد!

تسحبها رائحة البارود إلى البعيد، رائحة شواء اللحم الحي على بعد سنتيمترات منها تزكم أنفها وتستوطن خلاياها، أزيز الرصاص الذي لا يتوقف، تحليق المروحيات المنخفض، صراخ النزع الأخير على بعد خطوات، وانهيالات السواتر التي أصبحت ككومة قش لا تحمي ولا تحصِّن، وكل ما عليها فعله هو أن تتجاهل كل هذا، بكل برود الكون تتجاهل، يدها على الزناد، عينها على الهدف... وتطلق!

واحد، اثنان، عشرة، عشرون، أرواح أرواح، كل روح وراءها حكايا: أم ملتاعة وحبيبة تنتظر،طفولة ضاحكة، ومراهقة عابثة، وذكريات وأيام وتواريخ، وهي عليها أن تنهي

الحكاية بطلقة واحدة، طلقة واحدة تنهي فيها صخب الحياة الرابض في جسد متكوم وراء ساتر ترصده عينها بمنتهى اليقظة.. والبراعة!

والأوسمة: واحد، اثنان، ثلاثة، عن كل زمرة أرواح تقبضها وسام يعتلي صدرها، ويسكن الصخر وجهها في كل مرة تتقلد فيها وساما جديدا..

– ولكن ... كانوا بشرا

= كانوا أعداء، بشرا من الأعداء، وكان عليّ أن أحمي الوطن.

– ولكننا نحن، نحن النساء، خُلقنا ليحمينا الرجال، من حقِّنا أن يحمينا الرجال، وهم خُلقوا ليحمونا، لسنا مطالبين أن نحيا حياتهم، ونحمل عنهم أثقالهم، كل ما علينا فعله هو أن نتقبَّل حمايتهم لنا، وننتظرها...

تزدرد لعابها بصوت مسموع، وتسرح في البعيد...

هذه المرة كان عليها أن تتقاسم مهمتها مع أحدهم، لا تكاد تذكر اسمه، ولاحتى ملامحه، يحملان المؤونة بالمناصفة، ثقلٌ على ظهره، ثقلٌ على ظهرها، حملٌ في يده، حملٌ في يدها، يتبادلان حديثا مقتضبا يعينهما على إزجاء الوقت ريثما يصلان إلى الثكنة، تعلو نبرتها وينصت، تفرض سطوتها فيذعن، أوسمتها تتكلم، ورتبته لا تعطيه الحق في الجدال!

حتى.. ماذا! هي نفسها لا تكاد تستجمع ذاكرتها، ما الذي حصل! كيف حصل! ومتى! كل ما استوعبه عقلها المتجمد أنها في لحظة واحدة ألقيت على الأرض وانكفأت على وجهها، بكل يسر وسهولة دفعتها يد الرجل، بعد كل ما خاضته، وسني عمرها التي كرستها لتدفع وتصاول وتعارك، دفعتها لتتكفئ على وجهها .. وبمنتهى السهولة... و اليسر!

ترزح هناك مقطوعة الأنفاس تحت حمل جسده الثقيل، تنفض جثته عنها، جثته الممزقة تماما، كأعتى ما يكون التمزيق والتشويه، أذناها تصفران بقوة، لا تكاد تستوعب ما يجري حولها، تلهث، تلهث، وتدير عينيها حولها في جنون، ما الذي جرى!! لتلحق أذناها بآخر صفير للطائرة المعادية فوقهما مباشرة وقد اغتنمت فريستها!

– حماك..

= أجل، فعل، أنا حتى لا أذكر اسمه، ولكنه فعل!